The Psychology of Religious Conversion: From the Classical Approach to Contemporary Approaches

https://doi.org/10.57642/AJOPSY--7

Mohamed Benhammour
benhamourmed8@gmail.com
Faculty of Human and Social Sciences, Ibn Tofail University, Kénitra-Morocco
Received: 25/09/2023 Accepted: 23/11/2023 Published: 31/12/2023

Abstract

The objective of this study is to achieve a critical analytical reading of the problem of religious conversion in the religious psychology literature, and focuses mainly on the most important approaches and schools that have confronted the phenomenon and attempted to treat it, in a scientific manner, away from theological and historical interpretations. This article also seeks to highlight the theoretical developments that the field of religious conversion psychology has known, starting with the classical approach, which sought to understand, explain and resolve the phenomenon by identifying the psychological processes behind the conversion of individuals. Secondly, it sheds light on the new approaches that strived to accurately define religious conversion, identify its most prominent steps and stages, and determine its religious intensity, types, causes, motivations, contexts and trends controlling it, and other effects of group pressures on individuals, and the cognitive manipulation that the religious convert is exposed to it. This review showed the limitations of classical and modern approaches in understanding the nature of the complex and dynamic process of religious conversion, and to work on trying to understand the multi-dimensionality of this phenomenon, by adopting a comprehensive, multi-level and multi-disciplinary model.

Keywords: religious psychology; religious conversion; psychological event.

علم نفس التحول الديني: من المقاربة الكلاسيكية إلى المقاربات المعاصرة

محمد بن همور
benhamourmed8@gmail.com
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب
الاستلام: 00/00/ 2023 القبول: 2023/11/23 النشر: 2023/12/31

ملخص

تهدف هذه المساهمة إلى إنجاز قراءة تحليلية نقدية لإشكالية التحول الديني في أدبيات علم النفس الديني، وتركز بشكل أساسي على أهم المقاربات، والمدارس، التي تصدت للظاهرة، وحاولت معالجتها، بشكل علمي بعيدا عن التفسيرات اللاهوتية والتاريخية، التي احتكرت واختزلت الموضوع في بعده الديني والتبشيري. كما تسعى هذه المقالة، إلى إبراز التطورات النظرية، التي عرفها حقل علم نفس التحول الديني، بدءا من المقاربة الكلاسيكية، التي سعت إلى فهم، وتفسير الظاهرة، وحلحلتها عن طريق الوقوف على السيرورات السيكولوجية الكامنة وراء تحول الأفراد. وثانيا، تسليط الضوء على المقاربات الجديدة التي سعت جاهدة إلى تحديد التحول الديني بشكل دقيق، والوقوف على أبرز خطواته، ومراحله، وتحديد كثافته الدينية، وأنواعه، والأسباب، والدوافع والسياقات والاتجاهات المتحكمة فيه، وغير ذلك من تأثير ضغوطات الجماعة على الأفراد، والتلاعب المعرفي الذي يتعرض له المتحول الديني. وقد أظهرت هذه المراجعة محدودية المقاربات الكلاسيكية والحديثة في فهم طبيعة سيرورة التحول الديني المعقدة، والمركبة والدينامية، والدعوة إلى محاولة فهم تعدد أبعاد هذه الظاهرة، عبر تبني نموذج شامل ومتعدد المستويات والتخصصات العلمية.

الكلمات المفتاحية: علم النفس الديني؛ التحول الديني؛ الحدث.

مقدمة

تكمن القيمة الاجتماعية والعلمية لهذا العمل في أصالته، وفي كونه يقدم قراءة تحليلية نقدية لإشكالية التحول الديني في أدبيات علم النفس الديني، من حيث أنه يسلط الضوء على أهمية المقاربة النفسية في التصدي للظواهر الدينية، ومعالجتها بشكل علمي، وعقلاني، بعيدا كل البعد عن التفسيرات اللاهوتية والاختزالية، أو الأحكام المسبقة والجاهزة. كما تكمن فائدته الاجتماعية في انتشال ظاهرة التحول الديني من الطابوهات الاجتماعية، والسجالات الإيديوسياسية، ووضعها في مختبر العلوم الاجتماعية وتشريحها، والكشف عن طبيعتها، والأسباب والعوامل الكامنة وراءها. ويتوقف فهم التحول الديني على المستوى العلمي عبر اكتشاف مساهمات المقاربات النفسية، خاصة المقاربة الكلاسيكية، التي كانت سباقة إلى محاولة فهمه، واستجلاء طبيعة السيرورات النفسية للمتحول الديني. وقد اعتبرت في نفس الوقت، أن تحول الفرد الديني غالبا ما يكون نتاج أزمة نفسية خانقة يعيشها الفرد، وبمثابة حدث نفسي بارز يطبع سجله الخاص. هذا، دون نسيان أهمية النماذج الحديثة، التي سعت إلى تجديد عدتها المنهجية والمفاهيمية، في سبيل فهم أعمق لسيرورة الظاهرة، التي اعتبرت جد معقدة ومركبة، وتختلف في السرعة والدوافع والسياق والاتجاه. وبناء على ذلك، فإن تتبع سيرورات مقاربات ظاهرة التحول الديني في علم النفس، يُعد أمراً جوهريا لفهم ديناميكياتها وتحولاتها، مع الأخذ بعين الاعتبار اختلاف زوايا نظرها، وتجاربها الميدانية، وتباين أسسها الإبستمولوجية، وتنوع أدواتها المنهجية، وكذا تعدد أطرها التحليلية. بلغة أخرى، يفرض علينا استكشاف حقل علم نفس التحول الديني، تعرية جذوره، والتعرف على إسهامات الآباء المؤسسين له، وتعقب أبرز محطاته الأساسية، ومدارسه، ونظرياته المعاصرة، وفهم تقاطعاته مع تخصصات معرفية مجاورة كعلم الاجتماع والأنثربولوجيا، وعلم الأعصاب.

التحول الديني باعتباره حدثا نفسيا

التحول الديني باعتباره استشفاء من انقسام الذات

يعتبر وليام جيمس James (1902) أحد أوائل العلماء الذين اهتموا بدراسة ظاهرة التحول الديني في وقت مبكر جدا. فقد نشر كتابه الكلاسيكي المعروف ب "The varieties of religious experience" سنة 1902 بناء على محاضراته الشهيرة التي ألقاها في جامعة إدنبرة. أظهر جيمس اهتماما بدراسة التجارب الدينية الاستثنائية، بل وكان مفتونا بدراسة الحالات المتطرفة على مستوى التدين، ولم يكن مهتما أبدا ب "المؤمن العادي"، أو بعض التحولات التي تكون أكثر عقلانية وتداولا. استخدم جيمس نهجا تحليليا تفسيريا لدراسة هذه الحالات (Paloutzian, 2014, p. 5). وقد كانت بياناته الأولية عبارة عن سلسلة من الروايات والقصص المروية من طرف الأشخاص الذين عاشوا تجربة دينية أو صوفية متطرفة. قام وليام جيمس بفحص هذه السرديات الشخصية ليقترب قدر الإمكان من الظاهرة نفسها، وعناصرها، وحيويتها، واختلافها عن المألوف، وكل معانيها الدقيقة. ومن خلال دراسة مثل هذه الحالات المتطرفة أو النموذجية، اعتقد جيمس أنه يمكنه التعرف على أكثر التجارب الأساسية، والعناصر التي تحدث في سيرورة التحول الديني. ما جعله يتوصل إلى أن تجربة التحول الديني الشديدة تنتمي إلى روح مريضة، وقد أكد على أن هذا النوع من التحول الديني يكون نتيجة لنفس حالات ما قبل التحول السلبي؛ أي أزمة نفسية خانقة، تجعل الذات منقسمة على نفسها، لكنها تستجمع قواها وتتوحد من خلال تجربة التحول الديني. ويفترض جيمس أن التحول الديني يكون في بداية أمره إما سيرورة تدريجية أو مفاجئة. كما ذهب إلى اعتباره في جوهره ظاهرة طبيعية تحدث في أغلب الأحيان في سن المراهقة، وتكون عرضية الشكل بين عالم الطفولة وحياة النضج الفكري والروحي، أما الأعراض فتكون هي نفسها؛ أي الشعور بالنقص والتجهم والاكتئاب والاستبطان والشعور بالذنب، والشك. وبالتالي، فمن الطبيعي محاولة هؤلاء المتحولين دينيا البحث عن الراحة والسعادة. وعلى الرغم من أن جميس ركز بشكل واضح على التحول الديني عند المراهقين، إلا أن اقتباسات المتحولين في نصه تضمنت أشخاصا من جميع الفئات العمرية، وكان معظمهم من المسيحيين وبعض المسلمين والهندوس أيضا. وقد وصف جيمس بعض المؤشرات التي تحدث بحصول التحول الديني ك "المشاعر" الإيجابية التي تملأ الإنسان على الفور، مثل "الإحساس الكبير بالسيطرة والسلام والوئام، والشعور بإدراك الحقائق التي لم تكن معروفة من قبل، والشعور بالجدة في الحياة والعالم بأسره، بالإضافة إلى حصول النشوة والسعادة. وتكون النتيجة هي تحول مفاجئ، ومستوى جديد من الحيوية الروحية، حيث تصير الأشياء المستحيلة ممكنة، وتظهر طاقات جديدة، وقدرة على التحمل، وتغير في الشخصية. وبالتالي، يولد إنسان جديد. وتعبر دراسة الحالات المتطرفة التي أجراها وليام جيمس عن وجود هذا الفائض من المشاعر، الذي غالبا ما يحد من الحالة المرضية، ويؤدي إلى إنشاء رابط بين التحول الديني وعلم النفس المرضي. فهذه النتائج التي توصل إليها جيمس فيما يخص تصنيف التجارب الدينية تعتبر من بين التجارب المتميزة التي يمكن أن يصل إليها الباحث، خصوصا فيما يتعلق بخلاصته التي تؤكد على وجود علاقة سببية بين التحول الديني وغاياته النفسية الاستشفائية. فالمتحول الديني هو مريض نفسي بحاجة إلى قوى عليا للاستشفاء، والتحول الديني يكون قنطرة العبور إلى هذا الهدف.

وقد وُجهة نقد كبير لهذه النتائج من طرف العديد من علماء النفس، وعلماء الاجتماع المعاصرين على اعتبار أنها اختزالية، وتركز على الأزمة النفسية أكثر من أي عامل أخر. وبالرغم من ذلك يبقى إسهام وليام جيمس إسهاما مميزا، من حيث أنه سلط الضوء لأول مرة على الظاهرة وأبعادها النفسية، وحاول تفسيرها تفسيرا علميا بعيدا عن كل التفسيرات اللاهوتية.

التحول الديني باعتباره تجديدا للذات

تعتبر كتابات إدوين ستاربوك Starbuck (1899) من بين الكتابات الأولى في علم النفس التي تطرقت إلى التحول الديني من خلال كتابه "The psychology of religion" الذي صدر سنة 1899. وقد كان ستاربوك طالبا للفيلسوف وعالم النفس وليام جيمس في جامعة هارفرد. من المهم تقدير السياق التاريخي العام لهذا العمل، لأن نهاية القرن التاسع عشر هي زمن بعيد في تاريخ علم النفس. وحيث أنه لم تمر أكثر من عشرين سنة على تأسيس ولهلم فونت أول مختبر في علم النفس التجريبي رسميا في لايبزيغ، ثم ظهور التحليل النفسي مع فرويد (Freud, 1900)، وتأسيس واتسون للسلوكية (Watson, 1913)، في حين لم تظهر مدرسة الجشطالت لعلم النفس على يد فيرتيمر Wertheimer كافكا Koffka وكوهلر Kohler (Koffka,1921,1935; Kohler, 1915, 1929; Lewin, 1922) إلا ابتداء من عشرينات وثلاثينات القرن الماضي. وبالتالي، لم يكن أي من التخصصات الفرعية أو الرئيسية الحديثة موجودة في ذلك الوقت تقريبا. ومع ذلك، فإن التحول الديني لفت انتباه الآباء الأوائل لعلم النفس، مثل وليام جيمس وستاربوك. وتشكلت أساليب البحث في التحول الديني عند ستاربورك شأنها في ذلك، شأن وسائل البحث التي تطورت مع تطور علم النفس؛ كالاستبيانات والإحصاءات والتصاميم التجريبية. كما ضمت عناصر الاستبيان التي تسأل عن التحول الديني (في المسيحية البروتستانتية) أسئلة من قبيل متى حدث التحول الديني؟ وكيف حدث؟ وما هي الحالات العقلية أو العاطفية التي كانت متضمنة في ذلك الوقت، أو قبله أو بعده؟ وطبيعة التغيرات في المواقف؟ والتأثير والسلوك على مدى فترات طويلة من الزمن بعد التحول الديني. هكذا، تمكنت أعمال ستاربوك من الحصول على بيانات خاصة بالحالات الفردية للمتحولين الدينين، حيث كان قادرا على جدولة (الرسومات المبيانية، كالتكرار، والنسبة المئوية) المتحولين الذين وصفوا، وبلغوا عن العديد من المشاعر العاطفية، والسلوكية، والمواقف قبل وبعد تحولهم الديني. وقد خلص ستاربوك في النهاية إلى أن حصول التحول الديني تسبقه حالة نفسية سلبية قد تشمل مزيجا من القلق، والاكتئاب، والشعور بالذنب، واللامبالاة، والشك، والتعاسة، ومشاعر من هذا القبيل. ففي نظره، إذا كانت هذه الحالة شديدة بما فيه الكفاية، فسيكون الشخص مدفوعا للبحث عن حل للأزمة، ويكون التحول الديني هو حله. وبالتالي، يتم حل المشكلة، مما يترتب عليه مشاعر إيجابية مثل السعادة، والسلام، والفرج، والشعور، بأن الفرد صار "فردا جديدا" أو "مولودا من جديد". بالنسبة لـ ستاربوك، يتضمن ذلك التخلي عن الذات القديمة، واكتساب ذات جديدة تتضمن إحساسا بالاكتمال والكمال والسلام الداخلي، وهو وصف للنمو الروحي والتغيير الواضح الذي يعرفه المتحول الديني الذي يرى في الدين مظلة لحياته ككل.

السيرورة النفسية باعتبارها تقع في قلب التحول الديني

قام علماء نفس آخرون كانوا جزءا من مدرسة كلارك (Clark School)، أو تأثروا بأعمال وليام جيمس بنشر كتب ومقالات عن التحول الديني. ويعد ستانلي هول (Hall, 1904) أحد الذين كتبوا عن التحول الديني في فترة وجيزة من حياته المهنية. حيث قام بتضمين مادة تخص التحول الديني عند المراهقين في مجلدين، وألقى محاضرات عامة حول الموضوع، ونشر مقالات عنه إبان تأسيسه للمجلة الأمريكية لعلم النفس الديني، والتي تأسست سنة 1904 ونشرت بشكل متقطع حتى سنة 1915. كما كتب لوبا (Leuba, 1912) عن الدراسة النفسية للدين، وأصوله ووظيفته ومستقبله، والدراسة النفسية للتصوف (Leuba, 1925)، وكتب ومقالات أخرى في نفس الموضوع. وقد كانت هذه الكتب سابقة لعصرها فيما يتعلق بالمعرفة النفسية العامة. كما قام إثنان من معاصريه ألبرت كو وجيمس براث (Coe, 1916; Pratt, 1920)، بإكمال قائمة المؤلفين الرئيسيين في علم نفس التحول الديني، وكلاهما مثل ستاربوك، وجيمس، ولوبا، اعتبروا أن السيرورة النفسية تقع في قلب التحول الديني الذي يشكل توحيدا للذات المنقسمة، حيث كان هناك إجماع حول هذه النقطة. ومع ذلك، كانت هناك بعض الاختلافات، فعلى سبيل المثال، خلص كو إلى أن التحول الديني التدريجي كان مهما لتحقيق مستويات أعلى من النمو الروحي، بينما لا يشكل "حدث" التحول الديني سوى لحظة واحدة في سيرورة نمو طويلة. تم توسيع هذه الفكرة من قبل برات، الذي اعتبر التحول التدريجي أكثر أهمية في سيرورة تطوير الذات لتصل إلى مرحلة الكمال عند سن البلوغ.

التحليل النفسي والتحول الديني

اختلفت مقاربة التحليل النفسي لفهم التحول الديني عن الأساليب السائدة في عصره من ناحيتين أساسيتين. أولا، إجراء وليام جيمس، وهول، وآخرون بحثا عن التحول الديني مع عدة مجموعات واستخدامهم لطرق تجريبية قياسية وغير إكلينيكية، جعل مدرسة كلارك سباقة إلى استخدام الاستبيانات لتحديد إجابات محددة للمبحوثين، ووليام جيمس إلى استخدام سرديات حية عن تجارب التحول الديني أو الدرامية، وقام بتفسيرها على ضوء المعرفة النفسية والفيزيولوجية في ذلك الوقت. على عكس هذه التقنيات تماما، فإن مدرسة التحليل النفسي استخدمت أساليب نفسية معمقة من خلال دراسة الحالات السريرية (Paloutzian, 2014, p. 6)، إذ غالبا ما تظهر على المرضى علامات العصاب أو الهستيريا أو متلازمات نفسية أخرى، كما تضمنت أساليبهم تحليل الأحلام وتفسيرها أثناء العلاج النفسي، وقد اكتشفوا المعنى الرمزي الكامن وراء ما يقوله المريض أو يفعله أو ينتجه. كما اعتقدوا أن أساليب التفسير هذه تكشف عن الطبيعة "الحقيقية" لدوافعهم (اللاواعية) أكثر مما يمكنهم تحديدها أو نطقها بوعي. وهكذا، استخدم علم النفس التحليلي بشكل واضح الطرق السريرية للبحث. واتضح الاختلاف النظري من خلال التركيز شبه الحصري من قبل فرويد ويونغ على العقل اللاواعي باعتباره الأساس "الحقيقي" لدوافع التحول الديني. ومع حلول العشرينات من القرن الماضي 1920s كانت نظرية التحليل النفسي لفرويد قد

ترسخت، ونشر فرويد في سنة 1927 كتابه "مستقبل الوهم"، وأوضح كيف تفسر نظريته انجذاب الناس للدين. فبالنسبة إليه كان الدافع البشري قائما على حاجات غير واعية، وغير عقلانية، يتم تلبيتها عبر القبول بإيمان وبإله يحمي دائما، ويسامح ويَعدُ بحياة أبدية. يبدو، هذا الاستنتاج نابعا بشكل مباشر من الافتراض النظري الأساسي لفرويد الذي يقول بأن اللاوعي هو المكان الذي تجد فيه الدوافع غير العقلانية أساسها. أما بالنسبة ليونغ، فقد كان من أتباع فرويد الأوائل، ولكنه انفصل عن دائرته الداخلية سنة 1909 ليؤسس مقاربته الخاصة لفهم اللاوعي وميل الناس تجاه الدين. ففي حين تفترض وجهة نظر فرويد وجود دوافع "سلبية" في اللاوعي، فإن وجهة نظر يونغ تؤكد على وجود دوافع "إيجابية" هناك. فعلى سبيل المثال، اعتقد يونغ أن العقل البشري يحتوي على أفكار كونية أو أشكال فكرية مدمجة تحفز الشخص على البحث عن نظرائه في العالم الحقيقي والعثور عليهم. وقد كان أحد المفاهيم الرئيسية التي اعتمد عليها يونغ وهو النموذج الأصلي. حيث اعتبر هذا النموذج حقيقة نفسية غير واعية. وهكذا، بالنسبة ليونغ كان الله نموذجا أصليا (سواء كان وجوده واقعيا أم لا) والميل البشري اللاواعي يميل للبحث عن الله والعثور عليه. لذلك، بالنسبة لكل من فرويد ويونغ، فإن التحول إلى الإيمان بالله، وقبول المعتقدات وما تنطوي عليها، كان مدفوعا بقوى قوية، ولكنها غير معروفة، وغير واعية بالنسبة لـ فرويد. فقبول الناس بالدين يكون بسبب نقاط ضعف بشرية متأصلة فيه، بينما هذا الأمر بالنسبة ليونغ يكون بسبب حاجة جوهرية لإيجاد تطابق مع نموذج الإله اللاواعي. وهكذا، يمكن القول أن التحول الديني بالنسبة لـ فرويد يخدم الحاجات البشرية، بينما بالنسبة ليونغ فإنه يهدف إلى تلبيتها.

التحول الديني من الحدث إلى السيرورة

نماذج التحول الديني في علم النفس

على الرغم من أن التحول الديني كان من الموضوعات الأولى التي درسها علماء النفس بطريقة علمية، إلا أن دراسة هذا الموضوع تراجع بعد الثلاثينات، ولم تنطلق الدراسات بشكل مكثف إلا في منتصف سنوات الستينات 1960s. ففي سنة 1967 ساعد سكروجس ودوغلاس (Scroggs & Douglas, 1967) في تحفيز البحث من خلال نشر ورقة لخصت المعرفة التي كانت متاحة آنذاك بشأن سبع قضايا تخص التحول الديني وهي: قضية تعريف التحول الديني، وعلاقته بعلم النفس المرضي، ومسألة النوع القابل للتحول الديني، والنضج العمري، ومسألة التطوع، ومسألة العلم مقابل الدين، وقضية المفاهيم (Paloutzian, 2014, p. 7). وقد تواصل البحث حول التحول الديني وازداد حجمه إلى درجة أصبح فيها مجالا مزدهرا، وتأثر بالسياق الديني والمناخ الذي جرى فيه في الولايات المتحدة البروتستانتية. لكن رغم ذلك، انتقد بعض المختصين وعلى رأسهم ريموند بالوتزاين علماء النفس لغياب تركيب يجمع بين البحث النظري والبحث الإمبريقي فيما يخص أسباب ونتائج التحول الديني. ويرى عالم النفس ريموند بالوتزين أن أحد الأسباب الرئيسية لنقص التوليف في هذه الحالة، هو أن معظم البحوث النفسية التي تم إجراؤها حول التحول الديني كان في سياق دراسات أحادية لم يتم توسيع أفكارها، وتطبيقها على دراسات مستقبلية أخرى. فقد صور كل نموذج نفسي للتحول الديني على أنه النموذج الفريد. فعلى سبيل المثال، لخص كل من باستون، شوينراد Schoenrade وفنتيس Ventis (Baston et al.,1993) نموذجهم للتحول الديني بما يسمى الاستنارة المعرفية (Cognitive illumination)، واستخدم جالانتر Galanter (Galanter, 1989) نموذجا نفسيا يشرح من خلاله التزام المتحولين بالحركات الدينية الجديدة عبر مفهوم تأثير الارتياح (Relief affect)، أما أولمان Ullman (Ullman, 1982) فكيفَ بعض تفسيرات نظرية التحليل النفسي لمعرفة الكيفية التي كانت فيها علاقة المتحول الديني مع الوالدين. درس بيروتينسكي Pirutinsky (Pirutinsky, 2009) العلاقة بين التحول الديني وعدم الأمان عند اليهود الأرثوذكس، واستكشف كوس Kose ولووفينتال Loewenthal (Kose & Loewenthal, 2000) العوامل النفسية في اعتناق البريطانيين للإسلام. وذهبت مونيا الأخضر Lakhdar (Lakhdar, 2007) في دراسة الدوافع النفسية الكامنة وراء تحول المراهقين والبالغين الفرنسيين إلى الإسلام. فيما ذهب كل من هانسبورغ Hunsberger وألتيمير Altemeyer (Hunsberger & Altemeyer, 2006) إلى البحث في الأسباب التي تجعل الأشخاص الذين نشأوا في دين ما وقرروا أن يصبحوا ملحدين. يمكن القول أن الاستثناء الوحيد في الدراسات النفسية كان مع غرانكفيست Granqvist وكيركباتريك Kirkpatrick (Granqvist & Kirkpatrick, 2004) من خلال سلسلة مشتركة من الدراسات حول التحول الديني لنظرية التعلق (Attachement)، حيث اقترح منظرو التعلق، أن تعلق الطفل يتطور خلال تنشئته الاجتماعية، كما أنه يختلف في النوع والجودة. وتعتبر هذه النظرية أن طبيعة الرابطة بين التنشئة الاجتماعية، وشخصية الطفل أمرا محوريا. وتحدد هذه التنشئة بشكل خاص فيما إذا كان الطفل يتعلق بالوالدين بطريقة آمنة أم غير آمنة، وتأثير علاقته بالانجذاب نحو الإيمان بالدين خلال مرحلة البلوغ. هذا الأمر، بالنسبة لمنظري الارتباط يحدد نوع وقوة الارتباط، خاصة إذا ما كان الفرد عرضة للتحول الديني لاحقا. ويقترح منظرو التعلق ثلاثة أنواع من تجارب التعلق: "آمن، وغير آمن ومتجنب". ينتج كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة "نموذج عمل داخلي"، أي نموذج عقلي بين فردي (interpersonnel) للعلاقات، وهو بمثابة دليل الشخص في تفاعلاته مع العالم، بما في ذلك علاقته مع الله. فبالنسبة لأولئك الذين كانت لديهم علاقة ارتباط آمنة مع الولدين فهم أقل عرضة للتحول الديني، حيث يحافظون على علاقتهم مع معتقدهم الديني بدل تغييره. أما الأطفال الذين تمت تربيتهم بشكل غير آمن أو متجنب، فهم أكثر عرض للتحول الديني، لأن علاقتهم غير المستقرة مع آبائهم جعلتهم يحتاجون دائما إلى ملاذ في أوقات الخطر، ويتم تلبية هذه الحاجة بقبول إله موجود دائما لحمايتهم وإعالتهم، وهذا التحول الديني هو جزء من عملية تعويضية.

إذن، مع تطور البحث العلمي لظاهرة التحول الديني، صار فهم الظاهرة أكثر وضوحا وأكثر تعقيدا من الناحية الفكرية، وما تم الحديث عنه في وقت سابق بأنه حدث (التحول الديني)، صار يفهم الآن على أنه سيرورة أكثر تعقيدا بكثير تتضمن العديد من السياقات الثقافية، والسيرورات الاجتماعية، والشخصية والظرفية ومتغيرات أخرى. فلم يعد تحول بولس هو المعيار الذهبي، ومع ذلك فقد ظهرت أشكال نمطية شائعة للتحول الديني، وعلى الأخص الرواية الإخبارية العرضية عن "التحول الراديكالي"؛ أي ذلك الشخص الذي خضع لتغيير كلي في جميع جوانب حياته ومعتقداته وسلوكه، مثل المسيحي الذي يصبح مسلما، أو ملحدا، أو الذي يصير يهوديا أرثودوكسيا متشددا.

التحول الديني ونظام المعنى

يعتبر نموذج الدين كنظام معنى من النماذج المعاصرة التي ابتكرها علماء النفس (Paloutzian, 2014, p. 13) مؤخرا، بهدف فهم كيفية عمل التدين البشري على جميع المستويات، وتحديدا كيفية حدوث التحولات الدينية والروحية. فمفهوم الدين كنظام معنى في نظر علماء النفس المعاصرين يوفر لغة مشتركة قادرة على ربط مجالات البحث المتنوعة في علم النفس. وعلى الرغم من أن أسئلة المعنى لا حصر لها، وعادة ما يتم تفسيرها على أنها أسئلة لاهوتية أو فلسفية، لكنها في الأساس أسئلة نفسية كما يرى بالوتزاين. فعندما نسأل عن معنى شيء ما، فإننا نسأل عما يمثله، وما الذي يعنيه أو يؤدي إليه، وكيف يرتبط بشيء آخر، وما هي تمثلاته واتصالاته في العقل البشري. هذه ليست أسئلة حول المعنى المكتشف، أو ما إذا كان يمكن التحقق منه، إنها أسئلة حول كيف يصنع الذهن البشري المعنى. وبالتالي، من أجل إنشاء نظرية للعمليات النفسية في التدين، والتحول الديني، والروحي التي تجسد جوهر وروح ما يدور حوله، نحتاج إلى الإجابة على سؤال معنى المعنى في الدين، لأن الدين في الأساس يتعلق بالمعنى. وتتضمن هذه المعاني؛ الأفكار والمشاعر والدوافع أو ردود الأفعال العاطفية والإشارات إلى معاملة الآخرين والسلوكات. فلا يوجد فكر أو عاطفة أو فعل محصن من الآثار المحتملة لسيرورات المعنى. إذن، سواء كنا نتحدث عن "تجربة دينية"، أو تطور ديني، أو الأفعال الدينية والمواقف الاجتماعية، والعمليات العصبية التي تنطوي عليها التجارب التي تعتبر دينية، كالسيرورات الدينية، وتأثيرها على الصحة البدنية والعقلية، وتأثير التحول الديني على ثقافة مجال العمل، أو التسامح الديني، أو دور الدين في الإرهاب، وجهود السلام، فإننا نطرح أسئلة حول المعنى.

يمكن تقديم ملخص موجز فقط لما هو نظام المعنى وعملياته العامة. هناك إصدارات مختلفة منه، لكنها تشترك في جوهر مشترك. قدم بالوتزاين (Paloutzian, 2014) مخططا ممتازا لتقييم المعنى عبر طريقة نفسية اجتماعية لتفسير النظام وتطبيقه على التحول الديني والروحي. فنظام المعنى بالنسبة إليه هو بنية داخل نظام معرفي بشري يتضمن المواقف، والمعتقدات، والقيم، والتوجهات، والأهداف، والأشياء العامة، وتعريف الذات وكل ما يتعلق من اهتمام بالمطلق. وباستخدام نموذج الدين كنظام معنى لفهم التحولات الدينية والتحولات الروحية، فمن السهل حسب بالوتزين استقراء هذا النموذج وتطبيقه على جميع جوانب التدين من الجزئي (علم النفس العصبي للتجارب التي تعتبر دينية) إلى الماكروي، (الدافع الديني أو تبرير العنف والإرهاب). فالنموذج عبارة عن ملخص نفسي، وعناصره عبارة عن بنيات معرفية اجتماعية، لكن الفكرة العامة القائلة بأن أي نظام في أي مستوى من التحليل له عناصر معنى، مما يسمح للعلماء في التخصصات الأخرى بتوسيع الفكرة المعروضة لتحديد عناصر المعنى داخل النظام العصبي أو النظام الاجتماعي أو الثقافة أو نظام سياسي ضمن سياق تاريخي معين. هكذا، نجد أن بالوتزاين يربط بين التحول الديني والدين باعتباره نظام معنى، حيث يكون فهم التحول الديني انطلاقا من فهم عمليات نظام المعنى، أي كيفية حدوثه، وما يمثله بالنسبة للفرد، وتأثيره على علاقاته الاجتماعية، ثم فهم المعاني التي يحملها الفرد المتحول دينيا من أفكار، ومشاعر، ودوافع، وردود أفعال عاطفية تجاه الأشخاص والأشياء.

اتجاهات البحث الجديدة في علم نفس التحول الديني

في السنوات الأخيرة ظهرت اتجاهات بحث جديدة في علم النفس الديني، تؤكد على أهمية وفعالية نموذج الدين كنظام معنى. وتدعو إلى إجراء البحث على ضوء نموذج متعدد المستويات، ومتعدد التخصصات (Rambo,1993)، ولا تقتصر على فهم التحول الديني من منظار علم النفس وفقط. كما تسعى هذه الاتجاهات الجديدة إلى التوسع في نوعية المبحوثين، وظواهر التحول الديني، والأدوات المتاحة لإجراء أبحاث التحول الديني على مستويات لم يتم النظر فيها من قبل. فالمعلوم أن الدراسات التي أجريت في معظم القرن العشرين، حول التحول الديني لمجموعات غربية مسيحية، هو ما دفع العديد من الباحثين إلى انتقاد التركيز على هذه العينات المحدودة، التي هي في الغالب عينات بروتستانتية، مما طرح سؤال باقي الأديان الأخرى كالبوذية واليهودية والإسلام والحركات الدينية الجديدة (NRM). هذا الأمر حفز علم نفس التحول الديني على التوسع في دراسة بعض التحولات الدينية المتنوعة، مثل دراسة هارولد Harold (2004) لقوة الدين المدمرة والعنف في اليهودية والمسيحية والإسلام. وبحث ماسليم Maslim و بجورك Bjorck (2009) في أسباب اعتناق النساء للإسلام في الولايات المتحدة. واستكشاف بيت-هولامي Beit-Hallahmi ونيفو Nevo (1987) ديناميات تغيير الهوية لليهود المولودين في إسرائيل...إلخ. وهو مؤشر على الدرجة التي بدأ بها علم نفس التحول الديني في النضج، والاستمرارية في دراسة الظواهر المختلفة. وكما كانت المجموعات المتحولة المدروسة محدودة في السابق، فقد كانت التقنيات والأدوات المستخدمة بدروها محدودة، فقد كانت تقنيتا البحث السائدتان هما المقابلة والاستبيان، كما هناك الآن تقنيات تحليلية إضافية على مستوى عال من الدقة الإحصائية وقوة تحليل البيانات التي لم تكن سائدة في الماضي. وتعد التقنيات الجديدة لتحليل المحتوى وأساليب البحث النوعي التي تنتج البيانات التي يمكن أن تكون متاحة بعد ذلك للتحليل الإحصائي الكمي باستكشاف

متعمق للمعنى الداخلي لتجربة التحول الديني من حيث المحتوى والآثار. ثالثا، إحدى التقنيات الجديدة الغنية بالإمكانيات بشكل خاص هي التصوير الدماغي أو (العصبي)، وعلى الرغم من أن أبحاث التحول تؤكد بشكل صحيح السيرورة التحولية على مستوى الشخص ككل. وإذا كانت النظريات الكلاسيكية الكبرى مثيرة للاهتمام بأفكارها المبتكرة، وربطت التحول الديني ببعض المتغيرات النفسية المحدودة جدا، فإنها لم تسلم من الانتقادات التي طالتها، بسبب عدم اختبارها بشكل كاف على المستوى التجريبي أو عدم قابليتها لذلك في بعض الأحيان، فإن الدراسات النفسية المعاصرة انتهت إلى تجاوز عدة عقبات كانت موجودة في بداية دراسة التحول الديني. فبناء على التقدم في قاعدة البحوث التي تدعم نموذج نظام المعنى، والتي على أساسها تم جمع البيانات، صار بالإمكان اختبار هذا النموذج تجريبيا، ودراسته على الوجهين الكمي والكيفي. كذلك، أصبح من الممكن استقراء المفاهيم من المستوى الجزئي إلى المستوى الكلي. وبالتالي، يمكن في نهاية المطاف دمج البحث في علم أعصاب للدين، والتحول إلى علم الاجتماع، والفهم الثقافي للتحول الديني. كما تم ربط علم نفس التحول الديني مباشرة بعدة تخصصات فرعية كعلم نفس تغيير الشخصية، وعلم النفس النمائي والعلاج السريري وتغيير المواقف، والإقناع، والتعلم، والتكيف. وبالتالي يمكن تركيب البحث حول التحول الديني مع هذه المجالات.

تركزت إذن، جهود قضايا علم النفس الديني المعاصر لفهم التحول الديني والروحي في ثلاثة أهداف جوهرية (Paloutzian, 2014, p. 11)، وهي؛ أولا، إنشاء نظرية نفسية كاملة عن الأداء البشري على المدى البعيد، تتجاوز فهم وتفسير تدين الأفراد أو تحولاتهم، لأنه بغض النظر عن التدين، فإن السلوك البشري يفهم على نطاق واسع ليشمل المعتقدات والمشاعر والإدراك والدوافع. وهكذا، فإن النظرية التي تفسر التدين البشري والتحول الديني تفسر في الواقع كل السلوك البشري. وهذا هدف بعيد المدى له العديد من الآثار، لكنه مع ذلك يشكل الهدف المثالي. ثانيا، الهدف متوسط المدى، وهو المسار الذي يساعد على تحقيق الهدف الأول، وهو تعزيز علم نفس الدين في علم النفس العام. ما يعني الحاجة إلى مزيد من استكشاف الدرجة التي يكون فيها التدين فريدا من الناحية النفسية. كما يجب أن تكون النتيجة أن أجزاء من سيكولوجية الدين والمعرفة حول التحول الديني توجد على أنها ليست استثنائية من نوعها، مما يعني ضمنًيا أن تلك الجوانب من التدين تنظمها نفس السيرورات التي تنظم السلوكات البشرية الأخرى. وهكذا، سيصبح كل من تداخل وتمييز العمليات النفسية التي تنظم التدين البشري جزءا معياريا ومتكاملا من المعرفة النفسية العامة. الهدف الثالث؛ والأقل نطاقا ولكنه ضروري للتقدم نحو الهدفين الأول والثاني، هو إنشاء نظرية تستند إلى أدلة وبيانات شاملة تشرح السيرورات النفسية التي تتوسط التحول الديني.

خلاصة

على سبيل الختم، يمكن القول أنه بالرغم من الأهمية الواضحة للمقاربات النفسية في فهم وتفسير التحول الديني، إلا أن الطابع الإشكالي للظاهرة أرخى بظلاله على جميع نظرياتها الكلاسيكية والحديثة، وظل التباين والتمايز والاختلاف قائما، سواء على مستوى المناهج أو على مستوى النتائج. فإذا كانت المقاربة الكلاسيكية في بداياتها قد حاولت معالجة الموضوع بوسائل وأدوات جد محدودة، واختزلت التحول الديني في علاقته بالمرض النفسي، ورأت فيه طريقا ملكيا للخلاص، وسعيا لحل أزمة نفسية عميقة. فإن المقاربات الجديدة، ورغم محاولتها الذهاب أبعد من ذلك، في بحث مسترسل، وأكثر ديناميكية عن مراحل التحول الديني، وخطواته، وتنوع الدوافع، والعوامل الذاتية المسؤولة عن ذلك، مسترشدة ببعض النماذج التفسيرية، كالاستنارة المعرفية، وتأثير الارتياح، وتأثير التنشئة الاجتماعية. تكون بدورها قد أبانت عن محدوديتها في تفسير التغيرات والتحولات الفردية، والجماعية، وعجزها عن الإحاطة بالظاهرة بشكل كلي، نظرا لانغماسها في تفسيرها من منطلق العوامل الذاتية، وإهمالها لأهمية الروابط الفردية، ودور الشبكات الاجتماعية، والسياقات الاجتماعية والثقافية في تغيير الأفراد لدينهم ومعتقداتهم. وبالتالي، فإن شرعية الدعوة إلى إجراء بحوث على ضوء نماذج متعددة المستويات والتخصصات، صار أمرا ملحا، بهدف فهم أدق وأشمل لتعدد أبعاد ظاهرة التحول الديني.

المراجع

جيمس، وليام. (2020). *تنويعات التجربة الدينية*، ترجمة: إسلام سعد، الطبعة الأولى. بيروت: مركز نهوض للدراسات والنشر.

فرويد، سيغموند. (1974). *مستقبل وهم*، ترجمة: جورج طرابيشي، الطبعة الأولى. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.

Köse, A., & Kate. & Loewenthal. (2000). Conversion Motifs among British Converts to Islam. *International Journal for the Psychology of Religion, 10,* 101–110.

Beit-Hallahmi, B., & Nevo, B. (1987). Born again' Jews in Israel: The Dynamics of an Identity Change. *International Journal of Psychology, 22,* 75–81.

Ullman. (1982). Cognitive and Emotional Antecedents of Religious Conversion. *Journal of Personality and Social Psychology, 43,* 183–192.

Batson, C., & Scheonrade, P., & Ventis. (1993). *Religion and the Individual: A Social Psychological Perspective.* Oxford.

Starbuck, E. (1899). *The Psychology of Religion*. Walter Scot .

Galanter. (1989). *Cults: Faith, Healing, and Coercion*. New York: Oxford.

Hunsberger B., Altemeyer B. (2006). Atheists: A groundbreaking study of America's nonbelievers. Amherst, NY: Prometheus Books.

Lee A. Kirkpatrick. (2005). *Attachment, Evolution, and the Psychology of Religion*. New York: Guilford.

Galanter. (1989). *Cults: Faith, Healing, and Coercion*. New York: Oxford.

Lakhdar, Mounia., & Al. (2007). Conversion to Islam among French Adolescents and Adults: A Systematic Inventory of Motives. *International Journal for the Psychology of Religion, 17*(*1*), 1-15.

Granqvist., & Kirkpatrick. (2004). Religious Conversion and Perceived Childhood Attachment: A Meta-Analysis. *International Journal for the Psychology of Religion*. 14, 223-250.

Rambo. (1993). *understanding religious conversion*. Yale University Press.

Paloutzian. (2014). *Psychology of religious conversion and spiritual transformation*. The Oxford Handbook online.